إذا كان التفكير العلمى المحض مشاعاً بين الأمم ولا قبل لك بالتمييز بين اكتشاف وفق إليه جرمانى ، واكتشاف آخر يظفر به لاتينى أو عربى ، فليس الحال كذلك فى الأدب ، لأنه خطرات أفكار ، وسانحات شعور ، تخرج من صميم الفطرة وتتخذ حتما الصور والألوان الخاصة بلغة كل شعب وتقاليده وأخلاقه ، فليس هنالك أدب عالى كما أنه ليس هنالك فن عالى وموسيقى عالية بما تدل عليه هذه الكلمة من الاطلاق . غير أن هنالك آداباً وفنوناً وموسيقى تبلغ الذروة من الإبداع ، فإذا نقلت إلى أمة غريبة عن منشئها احتفظت بالقدر الكافى من الجمال لتؤثر فى نفوس الأمة الغريبة

إن بين آثار كتابنا فى هذا الزمان قطعاً فنية تتدفق روعة وجمالاً ، ولكنك لاتجد إلا اليسير منها مايمكنك أن تنقله إلى لغة أجنبية دون أن يقول لك أهلها إنهم قرءوا مثلها فى مؤلفات كتابهم ...

لكأن العناية قد أرادت بعث الأدب العربى صافياً ليجمع ما انفرط من شمل هذه الأمم التى تناهبت الأذواق العربية بيانها ، فأرسلت من اختارت فى مطلع نهضتنا يبعثون لغة الجنان بعد طول هجوعها ، يبعثونها ملهمة من الوحى ومما أبدعه استغراق المتقدمين حين كان شعورهم تسبيحاً وتفكيرهم صلاة وسجوداً . يبعثونها لا يكدر نهرها المتدفق ينبوع دخيل ، ولا تشوه أساليبها نجمة ، ولا يحتل إعجازها بإيجازها وإحكامها ، ما لا قبل لها به من الأساليب الغريبة . لكأن العناية أرادت أن تفتح آذان الجيل الناشئ إلى أصوات الأجيال المتوارية ، فاختارت لها رسلها وفى طليعتهم الرافعى ، أنشأته فى بيئة خاصة ، وقضت له بألا يجول إلا فى دوائر الأدب العربى ، وبلته بالصمم كيلا يسمع صوتاً إلا صوت نفسه تتجاوب أصداء العروبة فيها من جميع حقبها وأطوارها ، ليصرخ صرخته المدوية كأنها هتفة بوق النشور فى هذه الشعوب التى أضاعت استقلال تفكيرها ، فتناهب بيانها الغريب من كل بيان حتى فقدت ثقتها بنفسها فقضت على ميزاتها وعزة حياتها

قبلكى فارس

التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنـــكولن

هدية الأهرام الى عالم الطبيعة

للأستاذ محمود الخفيف

— ١١ —

يا شـــباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامى العظيم

والحق أن مسألة العبيد تزداد تعقيداً كلما تقـدمت الأيام ؛ ولكن ابراهام لم يكن الرجل الذى يضل السبيل إذا تعقدت من حوله مسالكها . رأى بنافذ بصيرته أن السماح بانتشار العبيد وراء الحد الفاصل معناه سيادة أهل الجنوب وبقاء نظام العبيد إلى أمد بعيد ؛ ورأى كذلك أن الدعوة إلى التحرير تؤدى لا محالة إذا اشتدت إلى انسحاب أهل الجنوب من الاتحاد فينهار البناء ، وتعصف بالوحدة القومية الأنواء . إذا فليتنظر وليحذر وليترقب ما تأتى به الأيام ...

انصرف دوجلاس ولكنه قبل أن ينصرف أبى إلا أن يأتى ما يدل على طبعه ، فلقد نقض العهد وأتى بعد يومين خطاباً جديداً حاول فيه أن يدافع عن آرائه ، ولم يستطع لنكولن إلا أن يظل عند كلمته ، فأبى أن يتكلم وقد جعل بينه وبين خصمه ميثاقاً أن يقطعا حبل الجدل

ولقد كان لانتصار لنكولن على دوجلاس العظيم ذلك السياسى الملحوظ المكانة أثر بعيد فى حياة ابن الغابة قاطع الأخشاب بالأمس وعامل البريد ، وفتى الحانوت البائس الفقير ؛ ذلك أنه ازداد ثقة بنفسه فأخذ يشتد طموحه ويمتد بصره ؛ وازدادت كذلك ثقة الناس فيه واشتد إعجابهم به واطمئنانهم إلى مقدرته وجدارته

ولذلك نراه يخطو خطوة جديدة فى مضمار السياسة فيطمع أن ينتخب عضواً لمجلس الشيوخ ويأمل بذلك أن يعود إلى وشنجطون . وهل كان يرى نفسه دون دوجلاس مقدرة ومكانة

وهو قاهره على أعين الناس فى أمر له عند الناس خطره ؟ ولقد انتخب أول الأمر عضواً فى مجلس المقاطعة ولـكنه ما لبث أن استقال منه وأخذ يدعو لنفسه ليختار عضواً فى مجلس الشيوخ للولايات ... وكان منافسه فى هذا شيلدز ، ذلك الرجل الذي تحداه من قبل إلى مبارزة بالسيف لما كتبه لنكولن عنه فى إحدى الصحف وعدّه هو إهانة له

وكان الذين ينتخبون عضو مجلس الشيوخ هم أعضاء مجلس المقاطعة ، وكان المجلس يومئذ يجمع أنماطاً من الرجال فرقت بينهم الأهواء وباعدت الآراء ، ففيهم بقايا حزب الهوجز الذين يمقتون التطرف ، وفيهم الديمقراطيون أنصار مبدأ العبيد ، وفيهم المعارضون لقرار نبراسكا ، وفيهم غير هؤلاء وهؤلاء ممن تتذبذب سياستهم حسب ما يقوم فى رؤوسهم من الآراء فى مسألة العبيد

وكاد يظفر ابراهام بما يتوق إليه وبما باتت زوجته تمني النفس به لولا أن دعا الديمقراطيون فى اللحظة الأخيرة إلى رجل غير لنكولن ومنافسه ؛ وعندئذ أشار لنكولن على نصرائه أن يمنحوا هذا الرجل الجديد أصواتهم ليفوت الأمر على منافسه الأول إذ كان هذا من أصحاب دوجلاس بينما الآخر ممن يعارضون قرار نبراسكا ؛ وهكذا يذوق لنكولن مرارة الفشل من جديد !

ولـكن الفشل هذه المرة لم يبلغ من نفسه ما كان يبلغه في الأيام السالفة ، فهو اليوم مطمئن إلى نصيبه من رضاء الناس وإلى حظه من الصيت والنفوذ . لقد قابل الأمر بدون اكتراث لولا ما أظهرته زوجته من غضب وحنق ، على أنها ما لبثت أن رضيت وسكنت ثورتها ، ذلك أنها كانت تكاد ترى رأى العين ما ينتظر زوجها من مستقبل عظيم ...

ولم يصرفه الفشل عن السياسة كما كان عسيًّا أن يفعل فى ظروف غير هذه ؛ فلقد عرف أن فشله يومئذ إنما يرجع إلى أسباب لا يستخذي لها ، ومن أهم تلك الأسباب ما فعله دعاة التحرير ، فلقد حشروا اسم لنكولن على غير علم منه فى معضديهم وراحوا يباهون به الأحزاب ؛ ولقد أدى هذا إلى ازعاج كثير من الديمقراطيين إذ حسبوه قد مال إلى الطفرة فى مشكلة العبيد، كذلك أنكر الهوجز عليه أن ينحرف عن سياسته القائمة على الحذر ، ولقد كانوا يحبون منه اكتفاءه بمقاومة انتشار العبيد ، أما أن يميل الى التحرير فجأة فيعمل مع المتطرفين على القضاء على الاتحاد فذلك ما لا يقبلونه منه ؛ وهكذا أخذ على الرجل ما لم يجنه فأصابه من الخذلان ما أصابه ...

لا جرم أنه اليوم رجل سياسة أكثر منه رجل محاماة ، ولا جرم أن معضلة العبيد قد صار لها المكان الأول من همه فهو لن يرجع حتى ينفس عن صدره بما يفعل فى هذه المعضلة التى صارت المحور الذى تدور عليه سياسة الاتحاد ، والعقدة التى يتوقف على حلها مصير البلاد ؛ وإنا لنرى فيه الرجل الذي يتطلبه الوقف شأنه فى ذلك كغيره من عظماء الرجال الذين يظهرون فى فترات الزمن ليتم بهم للتاريخ وسيلة تحركه، إذ يصبح لديه الرجل العظيم والفكرة العظيمة ، فما أن يتمثل العظيم الفكرة ويمزجها بنفسه حتى يقدم لا يلويه شئ عن الغاية فيضل أو يهلك دونها ويذر البقية لمن يليه ...

على أنه كان فى سنه يومئذ قد وصل من المحاماة إلى أوج الشهرة، فكان وهو فى السابعة والأربعين الرجل الذى يظفر فى مهنته باطباق الناس على توقيره وإجماعهم على التسليم له بالنبوغ وطول الباع وسعة الخبرة، هـذا إلى ما انفرد به من سجايا جعلته بينهم وكأنه أكثر من أن يكون منهم ! ...

وتوافت له فيما توافى من أسباب العظمة تلك الخصلة التى لا تقوم عظمة بدونها ؛ والتى تجعل العظيم يظهر بين الناس وفيه شئ يحملهم على إكباره طائعين أو كارهين ؛ شئ يحسونه وإن كان أكثرهم يجهلونه، شئ مبعثه ذلك السر العجيب الذى نعبر عنه بقولنا روح الرجل العظيم والذى يسميه بعض الناس الحماسة ويسميه بعضهم الإخلاص ويسميه آخرون الإيمان والذى هو فى الحق مزيج من هذا كله لاندري كيف يتم، مزيج ينبض به قلب العظيم ويجرى فى نفسه جريان الدم فى عروقه ... ومن الناس من وهبوا الذكاء الحاد والمهارة الفائقة ولـكنهم حرموا تلك الخصلة فما استطاعوا فى أعمالهم أن يرقوا بأنفسهم إلى مستوى أعلى من مستوى غيرهم ؛ ومنهم من لم يعظم ذكاؤهم ولـكن يمس قلوبهم قبس من ذلك السر العجيب فاذا هم غير النـاس ، ثم إذا هم فوق

الناس ... ومن هؤلاء النفر ذلك الرجل الذى درج فى الغابة والذى بنى نفسه فسار فى الحياة على نهج من قلبه وعلى دليل من طبعه ، ذلك الرجل الذى لا يذكر لأحد عليه يداً والذى تنكرت له الأيام وعركته المحن فتق كما يبقى الجوهر الحر لا تترك فيه النار من أثر إلا البرهان القاطع على أنه جوهر حر لا مظهر ...

وتشاء الأقدار أن تقوم عظمة أمريكا على كاهل رجلين من أبنائها درجا فى مدرج الشعب وبرزا من صفوف العامة وهما جورج وشنجطون وابراهام لنكولن ؛ أما أولهما فيرفع القواعد ويقيم الصرح ، وأما الثانى فيمسكه أن ينهار ؛ وتكون بذلك عظمة أمريكا عظمة ذات أصالة إذ لم تنشأ عن تقليد أو تستند إلى مبهرج من سلطان زائف ، ويكون صرحها كالجبل الذى هو من أوتاد الأرض ، لا كالبناء الذى يقوم على أسس يجوز عليها أن تجتث من فوق الأرض ...

ومضت الأيام تسير بابن الغابة سيراً معجلا وثيقاً ليؤدى رسالته ، ولعله أشرف من حاضره على ما يعده له الغد القريب . أجل لعله أخذ يدرك أن مسألة العبيد مفضية حتما إلى خطوة واسعة يخطوها غداً فيحس بعدها أنه ترك فى تاريخ بلاده ماتذكره به الأجيال . اقرأ كتابه إلى صديقه سبيد تقع فيه على رأيه وتتبين كثيراً مما كان يجول فى نفسه ، قال : «فى عام ١٨٤١ قمنا معاً برحلة مملة على صفحة ماء منخفض فى قارب بخارى من لوسئيل إلى سان لويس ، ولعلك تذكر كما أذكر أنه كان على ظهر القارب عشرة أو اثنا عشر عبداً مقرنين فى الحديد . ولقد كان هذا المنظر مبعث عذاب مستمر لى ، وإنى أبصر شيئاً مثله كلما لمست نهر الأهايو أو أى جهة من جهات العبيد . وخلاف الجميل منك ياصديق أن ترى فى أنى لا أهتم بذلك الشىء الذى ينطوى على قوة تكربنى والذى لا يفتأ يسبب لى الكرب . لقد كنت حرياً أن تتبين إلى أى حد يقتل سواد الناس فى الشمال مشاعرهم حتى يستطيعوا أن يحتفظوا بولائهم للدستور وللوحدة »

فى هذه الكلمة القصيرة ، ينجلى لنا رأيه فى مسألة العبيد فهى مبعث ألم فى نفسه ، ألم استقر فيها منذ القدم فما يبرحها ، وهو على الرغم من هذا الألم يحرص على الوحدة وعلى الدستور وفى ذلك تلخيص دقيق لمنهاجه الذى سيأخذ به نفسه حين يهم أن يهوى بالضربة الحاسمة فهو ضنين بالوحدة أن تتزلزل كما هو حريص أن يمحو كل أثر للعبودية فى البلاد ...

لن يضيره اليوم ألا يصل إلى مقعد فى مجلس الشيوخ بل ربما كان الشر فى أن يظفر بهذا المقعد ، فلقد كانت له بعد فشله جولات لها خطرها فى حياته ، جولات تنتهى به حتما إلى رياسة الجمهورية فلم يبق ثمة على الدرب إلا مرحلة ...

وكثيراً ما يبتئس المرء إذا فاتته فرصة كأنما أغلقت بقواتها مسالك الفوز من دونه ، وهو لا يدرى أنه ربما كان الخير فى فواتها ؛ والحياة مليئة بالأمثال حافلة بالعبر ؛ والعظماء وحدهم هم الذين لا يلويهم فوات الفرص وإن ابتأست لفواتها أحياناً نفوسهم ، بل إنهم ليحمون على الشدائد ويستمرون على الكفاح ويستشعرون اللذة فى النصر ، كما يستشعرونها فى ركوب الصعاب إلى ذلك النصر ، ولن ينقص منها ما قد يصيبهم من خذلان

ولقد كان لنكولن من هؤلاء البواسل الأفذاذ الذين لا يحفلون الصعاب ، والذين لا يحول بينهم وبين وجهتهم خذلان مهما عظم ؛ بقى فى سبر نجفيلد بعد فشله ليكون فى المدينة زعيم الحزب الجديد الذى تستقبل البلاد مولده ؛ وهل كان غيره تجتمع عليه القلوب والأهواء ؟

كانت البلاد تستقبل حزباً جديداً هو الحزب الجمهورى ؛ ولقد تألف هذا الحزب من عدة عناصر يجمع بينها حرصها على مقاومة انتشار العبيد حسبما جاء فى اتفاقية سورى ، فكان ينتظم عدداً من الهوجز وعدداً من الديمقراطيين وجماعة من دعاة التحرير ؛ وكان قيام هذا الحزب فى تاريخ البلاد فاتحة فصل جديد كما كان فى تاريخ لنكولن مبدأ عهد جديد

(يتبع)

الخفيف

اطلب مؤلفات
الأستاذ النشاشيبي
وكتابه
الإسلام الصحيح
من : مكتبة الوفد ، شارع الفلكى (باب اللوق)
ومن : المكتبات العربية المشهورة